

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الطَّلَعَةُ الرَّابِعَةُ
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

الْمِثْرَةُ صَبِيح

عبد الحميد جودة السحار ١٨

كانت السيدة صُبح ، من نساء البشكنس ، تلك
المنطقة الواقعة في شمال أسبانيا ، بالقرب من جبال
البيرائية ؛ وقد وقعت في السبي ، يوم غزا العربُ
تلك المنطقة واجتاحوها ، ولما كانت شابةً رائعةَ
الجمال ، حُمِلت إلى قصر الحكم بقرطبة . وفي
ذات يوم ، بينما الحكمُ يحولُ في قصر الزُهراء ، إذ
مَسَّ أذنيه صوتُها الأسير ؛ فانطلق إليها ؛ وجلسَ
يُصغي إلى النغم الحلو المطرب ؛ وما غادرها حتى
تركت في نفسه أثرًا طيبًا . فكان كلما تعبَ من
أمرٍ مُلْكِهِ ، هُرِعَ إليها ، ليجدَ عندها الراحةَ والدعةَ
والسلام .

ووضعت له ولدا ، فارتفعت مكانتها عنده ،
وصارت أميرةً لقرطبة . ولم يجد في ذلك غضاظةً ،

فقد كثر زواج الأمراء والعظماء ، بل عامة الشعب ، من أسبانيات ، بل كان الدّم الأسباني يجري في عروقه ، فقد تزوّج جدّه بماريّة الأسبانيّة ، ورزق منها والده العظيم ، عبد الرحمن الناصر ، الذي كان أعظم ملوك الأندلس بلا مرء .

واشتركت صُبحُ في إدارة شئون البلاد ، فكانت تجتمع كل يوم بالمصحف ، رئيس الوزراء ، تُصدر الأوامر ، وتشرف على تحرير الكتب إلى العمال والقواد والقضاة . وفطن الحكم إلى ما تبذله صُبحُ من جهد في تصريف أمور الدولة ، فأمر بأن يُعلن القصر عن حاجته إلى كاتب للأميرة ، يُعاونها في عملها .

تعلّم محمد بن أبي عامر في جامعة قرطبة ، ولما أتم دراسته ، فتح حانوتا تجاه القصر ، يُحرّر للناس

شكواؤهم ، ويُنمِّقُ لهم مظالمهم . وفي ذاتِ يومٍ ، وفدَ إليه بعضُ صحابه من طُلابِ جامعةِ قرطبة ، فخرجَ معهم إلى مُتَنَزَّهِ من المُتَنَزَّهات ، وشرَّدَ خياله ، فسأله أحدُ أصحابه عما يشغلُ باله ، فقال ابنُ أبي عامر :

— سأكونُ حاكمَ هذه الدَّولةِ يومًا ما ؛ تَمَنُّوا عليّ ، وليخترَ كلُّ واحدٍ منكمُ خُطَّةً ، أوليهِ إيَّاها إذا أفضى إلى الأمرِ .

فقال أحدهم :

— أتمنى أن تُولِّني القضاءَ بجهتي كورةِ رِيَّة ، فإنَّه يُعجبُنِي هذا التِّينُ الذي يجيءُ منها ، وأحبُّ أن أشتقِّي من أكلِهِ .

وقال ابنُ عسقلانَ ، وكان ابنَ عمِّه :

— إنِّي أوثرُ قرطبةَ ذاتِ القُصورِ العجيبة ، والمساجدِ الفخمة ، زينةَ المُدن ، وعُروسَ البلاد ، وأقصى ما أتمناه أن أكونَ حاكمًا لها .

وقال صديقه الثالث :

- أتمنى إذا أفضى إليك الأمر ، أن يُطاف بي قُرْطُبةً
كلها على حِمَار ، ووجهي إلى الذنَب ، وأنا مَطْلِيٌّ
بالْعَسَل ؛ ليجتمع الذبابُ عليَّ والنحل ، وليكن هذا
أول ما تستفتح به عهدك ، إذا حكمت الأندلس .
واسرها ابنُ أبي عامر في نفسه .

٣

وفدَّ إلى قصر الزَّهراء كثيرٌ من كتاب الأندلس ،
ليختار الخليفة من بينهم كاتباً للأميرة ، وتقدم محمدُ
ابنُ أبي عامر ، وهو يرجو أن ينال الوظيفة ؛ إنَّه إذا
دخل القصر ، عرف كيف يُحقِّق أطماعه الواسعة
العريضة .

وأذن لابن أبي عامر بالدخول ، فسار واجِفَّ
القلب . ورأى الحكمَ في صدرِ القاعة ، وإلى يمينه

جَعْفَرُ الْمُصْحَفِيُّ حَاجِبُ الدَّوْلَةِ ، فَانْحَنَى حَتَّى كَادَتْ
جَبْهَتُهُ تَلْمُسُ الْأَرْضَ ، ثُمَّ اعْتَدَلَ وَوَقَفَ بَعِيدًا . ثُمَّ
أَشِيرَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ ، فَتَقَدَّمَ فِي ثِقَةٍ ، وَجَلَسَ أَمَامَ
الْخَلِيفَةِ وَحَاجِبِهِ .

وَوَقَعَ اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ عَلَيَّ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ؛ وَجَاءَتْ
السَّيِّدَةُ صُبْحُ ، فَأَقَرَّتْ اخْتِيَارَ الْخَلِيفَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ
شَخْصِيَّةً ابْنِ أَبِي عَامِرٍ قَوِيَّةً آسِرَةً ، تَسْرِیْحُ إِلَيْهَا
النُّفُوسُ ، وَتَنْجَذِبُ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ .

وَأَصْبَحَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ كَاتِبَ الْأَمِيرَةِ ، فَرَاخَتْ
صُبْحُ ، وَالْمُصْحَفِيُّ حَاجِبُ الدَّوْلَةِ ، وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ
كَاتِبُهَا ، يَجْتَمِعُونَ كُلُّ يَوْمٍ فِي جَنَاحِ الْأَمِيرَةِ . كَانَتْ
صُبْحُ وَحَاجِبُ الدَّوْلَةِ يَتَدَارَسَانِ فِي شُؤُونِ الْمَلِكِ ،
وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ يَنْتَظِرُ أَوْامِرَ الْأَمِيرَةِ ، لِيُحَرِّرَ كُتُبَهَا إِلَى
الْعُمَّالِ وَالْقَوَادِ وَالْقُضَاةِ .

وراحتْ صُبْحُ تَرْعَاهُ ، أَمَّا الْمُصْحَفِيُّ فَمَا كَانَ
يَهْتَمُّ بِذَلِكَ الشَّابِّ الْأَلْمَعِيِّ ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ
نَظَرَتَهُ إِلَى خَادِمٍ عَادِيٍّ ، مِنْ خُدَّامِ الْقَصْرِ . وَكَانَ
يُعَامِلُهُ أحيانًا فِي غِلْظَةٍ ، وَقَدْ أَوْغَرَ صَدْرَ الشَّابِّ
عَلَى الْمُصْحَفِيِّ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَهَبَ إِلَى دَارِهِ لِعَمَلٍ
مِنَ الْأَعْمَالِ ، يَتْرُكُهُ فِي دِهْلِيزِ بَيْتِهِ السَّاعَاتِ ؛
فَكَانَ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي حَقْدِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَى
الْحَاجِبِ الْبَرَبَرِيِّ ، الَّذِي عَاوَنَهُ حَظُّهُ لِيَكُونَ رَئِيسًا
لِلوُزَرَاءِ ، يَتَحَكَّمُ فِي أَقْدَارِ النَّاسِ .

٤

ارْتَفَعَ قَدْرُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي الْقَصْرِ ، بِفَضْلِ رِعَايَةِ
الْأَمِيرَةِ ، فَأَصْبَحَ مُنَافِسًا خَطِيرًا لَوْلَدَيِ الْمُصْحَفِيِّ :
مُحَمَّدٍ وَعُثْمَانَ . وَرَاحَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ يَتَوَدَّدُ إِلَى كُلِّ مَنْ
فِي الْقَصْرِ . وَرَأَى أَنَّ الْخَصِيِّينَ : فَائِقًا وَجُوْدْرًا ،

اللَّذِينَ يَحْكُمَانِ عَلَى آلَافٍ مَمْلُوكٍ مِنَ الصَّقَالِيَةِ مِمَّنْ
يَعْمَلُونَ بِالْقَصْرِ ، يَكْرَهُانِ الْمُصْحَفِيَّ ، فَأَرَادَ أَنْ
يَكْسِبَهُمَا إِلَى جَانِبِهِ ، فَرَاخَ يُلَاطِفُهُمَا وَيُغْرِقُهُمَا
بِالْهَدَايَا .

وَرَاخَ الْحَكْمُ يَرْقُبُ الشَّابَّ وَهُوَ فِي خَيْرَةٍ مِنْ
أَمْرِهِ ، وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ خَيْرَتِهِ بِقَوْلِهِ لِلْمُصْحَفِيِّ :
- وَاللَّهِ لَا أَدْرِي يَا جَعْفَرُ أَعَدُّهُ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لَنَا ،
أَمْ أَعَدُّهُ سَاحِرًا مُحْتَالًا ؟

فَلَمْ يَنْبَسِ الْمُصْحَفِيُّ بِكَلِمَةٍ ، خَشِيَ أَنْ يَفْضَحَ
نَفْسَهُ ، وَيُعْلِنَ عَنْ بُغْضِهِ لِلشَّابِّ ، فَلَا يَكْسِبُ مِنْ
ذَلِكَ إِلَّا عَدَاوَةَ الْأَمِيرَةِ .

وَرَاخَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ، بِفَضْلِ رِعَايَةِ الْأَمِيرَةِ ، يَرْقَى
سُلَّمِ الْمَجْدِ سَرِيعًا . فَصَارَ نَازِلًا لِحَزِينَةِ الدَّوْلَةِ ، ثُمَّ
غِيْنَ لِلنَّظَرِ فِي أَمَانَةِ دَارِ السَّكَّةِ ، وَصَارَ صَدِيقًا حَمِيمًا
لِلوُزَرَاءِ . وَفَكَرَ فِي أَنْ يُهْدِيَ إِلَى الْأَمِيرَةِ هَدِيَّةً

جليلة ، اعترافاً بفضليها ، فجلب أمهر الصُّناع ،
وعهد إليهم بصنع تحفة فريدة ، تفوق روائع قصر
الزُّهراء . فراحوا يصنعون من الفضة نموذجاً
صغيراً ، لقصر من قصور الأندلس الرائعة ، فأبدعوا
ما شاء لهم الإبداع ، فجاء النموذجُ آيةً من آياتِ
الفنِّ والجمال .

وحملت الهدية النفيسة من دار ابن أبي عامر إلى
قصر الزُّهراء ، فاصطفَّ الناسُ على جانبي الطريق
لرؤية التحفة النادرة المثال .

٥

أصاب الحكم فالج ، فلزم فراشه ، فراحتْ صُبحُ
تفكرُ في حالها إذا مات زوجها ، فرأت أنَّ عليها أن
تغادر قصر الزُّهراء ، للخليفة الجديد ، بعد أن

اعتادت أن تجمع في يدها السلطان . فعزمت على أن تُغري الحكم بنقل الخلافة إلى ابنها هشام . فإذا قبل ، كان معنى ذلك إبقاء نفوذها ، وإدارة شئون الأندلس من وراء ستار .

ودخلت على الخليفة وهو مُمدد في فراشه ، وراحت تُواسيه ، فقال لها فيما قال :

- إن ما تكهن به ذلك الكاهن يروى في أدنى آناء الليل وأطراف النهار . إن صوته يهتف بي ، ويصيح دواماً : « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء ؛ فإذا انتقل إلى الإخوة ، وتوارثوه فيما بينهم ، أدبر وانصرم » .

ورأت صبح الفرصة سانحة ، لتلمس من زوجها نقل الخلافة إلى ابنها الذي لم يبلغ الحلم ، فقالت :

- خذ البيعة لابنك هشام .

- سيحجم الشعب عن مبايعته ، وسيقاوم أخى المغيرة تلك البيعة .

وظَلَّتْ تُحَسِّنُ لَهُ نَقْلَ الْخِلَافَةِ إِلَى أَبِيهِ ، حَتَّى
لَا يَزُولَ مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، كَمَا زَالَ مِنَ
الشَّرْقِ ، حَتَّى قَبْلَ نَقْلِ الْخِلَافَةِ إِلَى هِشَامٍ .
وَلَمْ تَنْسَ صُبْحُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ،
فَقَالَتْ :

- لَوْ كَانَ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ مِنْ خُلَصَانِنَا الْأَوْفِيَاءِ ،
لَأَمِنَّا سُلُوكَ النَّاسِ . مَاذَا يَا مَوْلَايَ لَوْ جَعَلْنَا ابْنَ أَبِي
عَامِرٍ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ فِي الْبِلَادِ ؟
وَوَافَقَ الْحَكَمُ ، وَصَارَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبَ
الشَّرْطَةِ .

وَرَأَتْ الدُّسَائِسُ تُحَاكُّ فِي قَصْرِ الزُّهْرَاءِ ، فَأَخَذَ
فَانِقٌ وَجُودَرٌ يُفَكِّرَانِ فِيمَا يَفْعَلَانِهِ إِذَا مَاتَ الْحَكَمُ .

كانا صاحِبَي نُفُوذٍ فِي الْقَصْرِ ، فَتَحَتَا أَيْدِيَهُمَا أَلْفًا
 مِنَ الصُّقَالَةِ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ لِهَما أَمْرًا ؛
 وَكَانَا بِمَقْتَنِ الْمُصْحَفِيِّ ، لِصَلْفِهِ وَبُخْلِهِ الشَّدِيدِ ، وَقَدْ
 اسْتَمَالَهُمَا الْمَغِيرَةُ أَخُو الْحَكَمِ بِهَدَايَاهُ ، فَأَصْبَحَ لِهَما
 الضِّيَاغُ الْوَاسِعَةُ . فَرَأَى أَنْ يُنَادِيَا بِالْمَغِيرَةِ خَلِيفَةً عَلَى
 الْأَنْدَلُسِ ، بَعْدَ مَوْتِ الْحَكَمِ ، لِأَنَّهُمَا إِذَا فَعَلَا
 ذَلِكَ ، كَانَ لِهَما الْفَضْلُ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، فِيمَكُنْ لِهَما
 فِي الدَّوْلَةِ ، وَيَقْوَى نَفُوذُهُمَا . وَفِي تَوَلِيَةِ الْمَغِيرَةِ
 قِضَاءً عَلَى الْمُصْحَفِيِّ ، الَّذِي بِمَقْتَنِهِ أَشَدُّ الْمَقْتِ .

وَتَدَفَّقَ وَجُوهُ الْقَوْمِ وَأَعْيَانُ الدَّوْلَةِ عَلَى الْحَكَمِ
 الرَّاقِدِ فِي فِرَاشِهِ ، وَوَقَّفَ بِالْقَرْبِ مِنْ فِرَاشِ
 الْخَلِيفَةِ الْمَرِيضِ : الْمُصْحَفِيُّ حَاجِبُ الدَّوْلَةِ ، وَخَلْفَهُ
 ابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَكَيْلُ هِشَامِ وَلِيُّ الْعَهْدِ ، وَوَقَفَتْ صُبْحُ
 خَلْفَ سِتَارٍ ، تَرُصِدُ مَا يَجْرِي فِي مَكَانِ الْاجْتِمَاعِ ؛
 فَمَا جَاءَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا إِلَّا بِتَدْبِيرِهَا ، لِيُبَايَعُوا ابْنَهَا
 هِشَامًا خَلِيفَةً ، بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ .

وتمت البيعة ، ولم تنسَ صُبحُ ابنِ أبي عامر ، فقد
صارَ المُفتشَ العامَّ للقصر .

٧

وماتَ الحَكَم ، فقالت صُبحُ لفائق وجُودر :
- ينبغي ألا يعلمَ أحدٌ بموتِ الخليفة .
وفطنا إلى أنها تدبرُ أمرَ المُنَاداةِ بابنها خليفةً على
الأندلس ، قبلَ أن تُعلنَ خبرَ وفاةِ أبيه ، فغادراها ،
والتفتَ جُودرٌ إلى فائق ، وقال :
- ينبغي أن نحضرَ جَعْفَرَ بنَ عُثْمَانَ المصْحَفِي ،
ونضربَ عُنْقَه ، فبذلكَ يتمُّ أمرُنا .
- لعلَّه لا يُخالفنا فيما نريده .
ولما المصْحَفِي مُقبلاً ، فأسرعا إليه ، وقالوا :

— مات مولانا الساعة ، وإن هِشامًا لا زال غلامًا ، وقد رأينا أن نُقلدَ الخلافةَ أميرًا أكبرَ منه سنًا ، وأنضجَ تجربةً ، وقد وقعَ اختيارُنا على المغيرة .
 رأى المصحفيُّ من الحكمة أن يُسائرهما ، فقال :
 — هذا هو الرأي ، والأمرُ أمرُكما ، وأنا وغيري فيه تبعٌ لكما ، فاعزِما على ما أردتما ، وأنا أسيرُ إلى الباب ، فأضبطه بنفسي ، وأنفذُ أمركما إلى بما شئتما .

وخفَّ ابنُ أبي عامر إلى حيث كانتِ الأميرة ، وانطلقا في القصر حتى وجدا المصحفي ، فقال لهما :
 — لقد نكثَ الصَّقَالِبَةُ بَيْعَةَ هِشام ، وإن فائقًا وجوذرًا يُريدان أن يُقلدا الخلافةَ المغيرة .

فقالت السيدةُ صُبح :

— ينبغي قتل المغيرة ، قبل أن يبلغه موتُ أخيه .
 وبعثت صُبحُ ابنَ أبي عامر في مائةِ غلامٍ من

غِلْمَانِ الْحَكَمِ إِلَى الْمَغِيرَةِ ، فَدَخَلَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ أَخِيهِ ، وَبِنَقْضِ الصَّقَالِبَةِ بَيْعَتَهُمْ ، وَفَطَنَ الْمَغِيرَةَ إِلَى أَنَّ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ مَا جَاءَ إِلَّا لِقَتْلِهِ ، فَقَالَ :

- إِنِّي سَامِعٌ مُطِيعٌ ، مَوْفٍ بِيَعْتِي ، فَتَوَثَّقُوا مِنِّي كَيْفَ شِئْتُمْ ، لَنْ تَجْنُوا شَيْئًا إِذَا أَهْرَقْتُمْ دَمِي ..

أَنَاشِدَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ فِي دَمِي ، وَالتَّمِسُ مِنْكَ أَنْ تَرَا جَعَهُمْ فِي أَمْرِي ، فَمَا أَظْهَرْتُ خِلَافًا ، وَلَا شَقَقْتُ عَصَا الْجَمَاعَةِ . إِنِّي سَامِعٌ مُطِيعٌ .
وَأَثَرَ تَوَسَّلُ الْأَمِيرِ فِي نَفْسِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، فَقَالَ لَهُ :

- سَارَا جَعَهُمْ فِي أَمْرِكَ .
وَرَاخَ يَكْتُبُ إِلَى الْأَمِيرَةِ وَالْمُصْحَفِيِّ ، يَصِفُ لَهَا جُنُوحَ الْمَغِيرَةِ إِلَى الْمُسَالَمَةِ ، وَيَسْأَلُهُمَا الرَّأْيَ . فَلَمْ